قصص قصيرة

كتاب الخبرِ والحبِّ

• عبد الإله عبد الرزاق*

لقم تمَّ كلّ شيء بهدوء. جاء بمُشترٍ وسيط من شارع المتنبّي. وقف الوسيط طويلاً أمام المكتبة الضخمة، وظلَّ يتأمّل عناوين الكتب. كان يقرأ عناوينها بتروٍّ عنوانًا عنوانًا، يقلّب بعضَها، يَضْرب على أغلفتها الجلديّة والكارتونيّة بإصبعه ضرباتٍ خاصةً كما لو أنَّه يَفْحص آنيةً زجاجيّة. كوَّم بعضَها على الأرض وترك بعضَها في رفوفها دونما ترتيب، ولم يتوانَ في أنْ يدوس على بعضها بحذائه المُغْبَرّ ليعلو بجسمه قليلاً فتتهيّأ له رُؤيةُ الرفّ العلويّ. كان يعلم أنَّه مايزال يدوس عليها، وكان يصل إليه شيء من كلمات التحذير من البائع. أصمّ أذنيْه، وأشاح بوجهه عنه كما لو كان الأمر لا يعنيه بشيء؛ فالمهمّ أن يتأكّد من سلامة البضاعة.

كلُّ ما في داخل نفسه كان قاحلاً يسكنه الهدوءُ. ذلك ما كان قد قرَّره منذ لحظةٍ بدأ يفكّر ببيع مكتبته، لأنَّ أيَّ محاولة لإظهار شيء من الحزن أو الألم سيُفْسد عليه هذه الصفقة، التي لا مفرّ الآن من الإقدام عليها: فذلك وحده هو الكفيل بأنْ يكون في بيته شيء من الطحين والسكّر والحليب والزيت. لقد باع الكثيرَ الفائضَ عن الحاجة وأبقى القليلَ في بادئ الأمر، ولكنَّه بعد سنوات قليلة باع جزءًا ممّا هو في حاجة إليه. والآن لم يَعُد ثمّة ما يبيعُهُ غيرُ كتبه.

ليلةَ اتّخاذه هذا القرار لم يبتْ مؤرقًا كما هو شأنه لدى اتِّخاذ القرارات الحاسمة. عَزَمَ فجأةً على أن يذهب صباحَ اليوم التّالي ليتّفق مع مشترٍ ما على بيع مكتبته. كان شعارُهُ: ينبغي لنا أن نعيش، وعند ذاك يمكن التعويض عن كل شيء. المهم أن نعيش!

رأى الوسيطُ كتابًا مقلوبًا على وجهه يجثم على كرسيّ مهترئ غيرَ بعيدٍ عن المكتبة. وكأنّ هذا الكتاب هو الذي يعنيه على قَدْر عنايته بالكتب الكثيرة التي عبثتْ بها يداه، فاندفع نحو الكرسيّ ليجيء بالكتاب المقلوب. لكنَّ صاحب المكتبة وضع يده أمامه في إشارة منه أن يتوقّف ويتركَ الكتابَ وشأنَه. قال المشتري وهو يهزّ كتفيه: «أريد أن أراه فحسب.» رفع الكتابَ إليه، فاستطاع المشتري أن يقرأ بسرعة على غلافة الأول وبخطّ كوفيّ: **العراق في**... ولم يستطع قراءة باقي العنوان إذ إنَّ صاحب المكتبة أعاد الكتاب بسرعة إلى الكرسيّ.

ظلّ يتأمّل الكتاب بشيء من الدهشة. كان كتابًا قديمًا جدّاً تمزّقتْ فيه الزوايا الأربعُ من غلافه الورقيّ غير السميك، وكانت أوراقه الصفر المفكّكة يَبْرز بعضُها من دَفَّتيْه. كان المشتري يحدّق في وجه الرجل كأنَّه ينتظر منه أن يقول له شيئًا عن هذا الكتاب الذي يَرفض التفريطَ به، بحيث رفض السماحَ له بتقليبه أو في الأقلّ قراءة عنوانه كاملاً. قال الرجل بهدوء كأنَّه يخاطب نفسه:

«إنَّه إرْث عزيز تركه لي والدي، يرحمه اللّه، قبل أكثر من خمسين سنة.»

هزّ الوسيط رأسه ليُعربَ عن عدم فهمه لِمَا سَمَعَ، واستدار إلى المكتبة ليعاود تقليبَ الكتب.

اتّفقا على السعر دون تأخير. قال الوسيط بسرور لا يخفى: «اتركْ كلَّ شيء في مكانه. سآتي بعد قليل بالمال وبسيارة.»

غادره بعد دقائق. وجد رجليه لا تطاوعانه. رفع كتابه وقعد على الكرسيّ، وعيناه على الكتب المبعثرة على الأرض بطريقة بدتْ له انتهاكًا لمشاعره هو فضلاً عن إهانةٍ للكتب نفسها ـ إذ لم يسبقْ له أن رآها بهذه الطريقة العدوانيّة أبدًا. بعض هذه الكتب انفتح غلافُه فاستقرتْ عليه كومةٌ أخرى من الكتب، وبعضُها الآخر انزلقَ تحت المكتبة، وبعضُها مايزال يحمل آثار أقدام مُتْربة وبقع ماءٍ من الكأس التي شرب منها المشتري قبل قليل. كان يتفحّصها بشيء من عدم الاهتمام: فقد أحسَّ أنَّها لم تَعُدْ تعنيه في شيء لأنَّها لم تَعُدْ ملْكًا له. غير أنَّ تكوُّمها بهذا الشكل هو الذي ضايقه وكان يستعجل الوقت ليجيء صاحبُها ويحملَها كي يخلّصَها من هذا العذاب.

---

* ـ كاتب من العراق.

قال له وهو يُلقي بين يديه بكيس من النايلون: «كل رزمة بخمسة وعشرين ألفًا. تستطيع أن تعدَّها بهدوء ريثما ننقل الكتب.» كان معه سائقُ السيارة، واستطاعا بعد أقل من ساعة رَفْعَ الكتب وحمْلَ المكتبة الفارغة إلى السيارة. كانت يَدُه اليسرى على كيس النقود، ويدُه اليمنى تُمسك بكتابه بقوّة كأنَّه يخشى أن تغفلَ عيناه عنه فيحملَه أحدُ هذين الرجلين كما حَمَلا أكوامَ الكتب إلى السيارة. وبوعي مقتول كان يقرّب الكتابَ من صدره، في الوقت الذي ارتختْ فيه أصابعُه على كيس النايلون فسقط في حجْرِه بإهمال. تركه على الكرسيّ وخرج إلى الباب الخارجيّ وهو يحمل كتابه إلى صدره. لوّح له المشتري بالتحيّة وعيناه تنظران إلى كتابه. شعر بحرارة نظراته تسقط على الكتب كما تسقط على يده. حين غادرته السيارةُ رأى رأسَ المشتري يطلّ منها وهو يومئ بإصبعه إلى صدره كما لو أنَّه يومئ إلى الكتاب. وتراءى له ظلُّ ابتسامة ساخرةٍ مُشفقةٍ ترتسم على وجهه. واختفت السيارة بعد أن استدار من فرع جانبيّ من الشارع.

وضع الكتاب على الكرسيّ وحمل كيس النقود. دخل على زوجته في غرفتها. رمى أمامها بالكيس. نظرتْ إليه زوجتُه باهتمام. لم ترَ وجهه أكثر هدوءًا ممّا تراه الآن، خلافًا لما توقَّعتْه. أشعرها ذلك بشيء من الاطمئنان. وضعتْ يدها على يده قبل أن تضعها على كيس النقود. حاولتْ أن تهيِّئ على وجهها ابتسامةً ما. رأى في عينيها شبهَ دمعتين، واختلاجةً بطيئةً تَنْبض في شفتها السفلى كأنَّها تقول له شيئًا: كلمةَ تشجيع، أو امتنانٍ، أو تعزية.

شغلتْه اهتماماتُ البيت والسعي إلى شراء حاجاته الضروريّة عن الاهتمام بكلّ شيء، حتى نسي كتابَه الذي تركه على الكرسيّ في الصالة. بعد يومين، وقد استقرّ كلُّ شيء في نفسه، راح ينظر بعين الرضى إلى كيس الطحين والسكّر وصفيحة الزيت والصابون وأكياس الحليب الصغيرة الملوّنة. تذكّر كتابه الذي نسيه على الكرسيّ. دُهِش حين لم يَرَه في مكانه. سأل زوجته وأولاده. أنكروا رؤيته وإنْ كانت زوجته قد أكّدت أنَّها رأتْه قبل ليلتين في مكانه على الكرسيّ. مضَوا جميعًا يفتّشون البيت. تملّكه غيظٌ اكتظّتْ به نفسُهُ وجعله يلمّ قبضتَه كما لو أنَّه يريد أن يَصْفع شيئًا ما وهو يدخل من باب ويخرج من آخر، متعثِّرًا بقطع الأثاث القليل. لكنْ دونما فائدة. لقد بدا كتابه وكأنَّه قد اختفى تمامًا وبطريقة يستحيل العثورُ عليها. سأل نفسه: «لماذا لا يكون المشتري قد اختلسه في غفلة منه؟» غير أنَّه أسكت في نفسه هذا الوهمَ لأنَّه مطمئنّ تمامًا إلى أنّ كتابه بقي على الكرسيّ مع كيس النقود عند خروجه وراء المشتري وسائق السيارة.

في كلّ ليلة حين يضع رأسه على الوسادة لينام، يقول لنفسه: «في الغد قد أَعْثر على الكتاب.» إنَّ اختفاءَه غير المعقول لا يمكن أنْ يغطّي حقيقة أنَّه هنا موجود، في زاويةٍ ما، أو تحت شيء ما. لكنَّه يعلم أنَّه لم يعد ثمَّةَ شيءٌ لم تعبث به يدُهُ أو يدُ زوجته وأولاده. غير أنَّه يظلّ يكرّر «لا بُدّ أنْ أعثر عليه.»

لقد بدا الأمر كما لو أنّ يدًا خفيّة أرادتْ أن تعبث بهم فأخفت الكتاب. وإلاَّ فأين ذهب؟ ولِمَ لَمْ يعثر عليه أحد إلى الآن؟

عشر سنوات والرجلُ ـ العجوزُ الآن ـ يَحْلم بأنْ يجد كتابه. في هذه الليلة كان نَفَسُهُ يتقطَّع وكان صدرُه ثقيلاً. وكانت زوجته إلى جانبه تجفّف نضْحَ عرقٍ وجهِه وتُمْسك عن عينيها هطولَ دمعة. تَسْمع صوتَه المتقطِّعَ إليها من بعيد. عيناها على شفتيه اللتين لا تتحرّكان. غير أنَّها كانت تسمع صدى صوت ضعيف متقطّع يملأ كيانها وهو يقول: «إذا عثرتِ عليه فسلّميه لابني عليّ. وإلاَّ فليبحثْ هو عنه. يجب أن تعثروا عليه.. يجب!»

بغداد